قنابل النوم

محمود سالم

قنابل النوم

تأليف
محمود سالم

هنداوي

قنابل النوم

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: وجدان توفيق

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥٩٥ ١

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود سالم.

المحتويات

من هم الشياطين الـ «١٣»؟	٧
أبطال هذه القصة	٩
ساعة ... التحرك	١١
حديث مع ... «ود حامد»	١٥
بارازيني أول الخط	٢١
معركة جانبية في منطقة النمور	٢٧
برازيني ... مرة أخرى	٣٥
الخطة «أسد» ... هي النهاية!	٤٣

من هم الشياطين الـ«١٣»؟

إنهم ١٣ فتًى وفتاةً في مثل عمرك، كلٌّ منهم يُمثِّل بلدًا عربيًّا. إنهم يقفون في وجه المؤامرات الموجَّهة إلى الوطن العربي ... تمرَّنوا في منطقة الكهف السِّري التي لا يعرفها أحد ... أجادوا فنون القتال ... استخدام المسدسات ... الخناجر ... الكاراتيه ... وهم جميعًا يُجيدون عدة لغات.

وفي كل مغامرةٍ يشترك خمسة أو ستة من الشياطين معًا ... تحت قيادة زعيمهم الغامض رقم «صفر» الذي لم يرَه أحد، ولا يعرف حقيقته أحد.

وأحداث مغامراتهم تدور في كل البلاد العربية ... وستجد نفسك معهم مهما كان بلدك في الوطن العربي الكبير.

أبطال هذه القصة

رقم «١»: «أحمد» من مصر.

رقم «٢»: «عثمان» من السودان.

رقم «٣»: «إلهام» من لبنان.

رقم «٤»: «هدى» من المغرب.

رقم «٥»: «بو عمير» من الجزائر.

رقم «٦»: «مصباح» من ليبيا.

رقم «٧»: «زبيدة» من تونس.

رقم «٨»: «فهد» من سوريا.

رقم «٩»: «خالد» من الكويت.

رقم «١٠»: «ريما» من الأردن.

رقم «١١»: «قيس» من السعودية.

رقم «١٢»: «باسم» من فلسطين.

رقم «١٣»: «رشيد» من العراق.

رقم «صفر»: الزعيم الغامض الذي لا يعرف حقيقته أحد!

ساعة ... التحرك

خبرٌ صغير في إحدى الجرائد الصباحية هو الذي دفع «أحمد» للذهاب إلى قسم المعلومات في المقر السري، ليحصل على بحث عن «حرب الميكروبات» ... كان الخبر يقول: «إن الثروة الحيوانية في إحدى الدول العربية مُهدَّدة بالفناء، فالحيوانات يُصِيبها مرضُ النوم حتى يُفقِدها القدرةَ على الحركة، كما فقدت شهيتها ... وتظل جائعة حتى تنتهي!» جلس «أحمد» في غرفته يقرأ ذلك البحث، إلا أنه لم يكد يستغرق فيه، حتى دخلت «إلهام»، وعلى وجهها ابتسامة طيبة، وسألته ماذا يقرأ، فأخبرها ثم دقَّ الجرس معلنًا لاجتماع سريع.

جاء صوت رقم «صفر» مرحِّبًا بالشياطين، ثم صمت قليلًا، ليقول: إن جرائد الصباح حملت خبرًا صغيرًا اليوم ... إن الخبر يقول، إن الثروة الحيوانية لإحدى الدول العربية مهددة بالفناء!

عاد إلى الصمت مرة أخرى، وعندما بدأ يتكلم، ظهرت خريطة جمهورية السودان، وما حولها من دول أخرى، فوق اللوحة المستطيلة المضيئة.

وأكمل رقم «صفر»: إن الخبر الذي نُشر جاء متأخرًا، لقد حاولت جمهورية السودان إخفاء الخبر مؤقتًا، حتى تصل إلى نتيجة، وحتي يمكن أن تضع يدها على شيء، وقد وصلت إلينا، منذ شهور، نتائج الجهود المضنية التي تبذلها جمهورية السودان، لتتغلب على هذا المرض الخطير الذي يكاد يفني ثروتها الحيوانية ... إن ما يحدث بالضبط، هو أن الحيوانات هناك لا تأكل، لأنَّها تصاب بمرض يطلق عليه اسم «مرض النوم»، وهذا المرض يحدث نتيجة جرثومة، تدخل جسم الحيوان عن طريق جهازه التنفسي فتصيبه بالمرض، وتشل حركة جهازه الهضمي أيضًا، وتكون النتيجة في النهاية هي موت الماشية بأعداد ضخمة، حتى أصبح التخلص من جثثها مشكلة أخرى، فهذه الجثث التي تتعفن وتتحلل يمكن أن تنتشر أمراضًا تؤثر على السكان هناك!

صمت رقم «صفر»، وبدأت بعض الأسهم الحمراء تنتشر فوق الخريطة لتحدد المساحة التي تقع فيها تلك الحرب، وفي نفس الوقت قال رقم «صفر»: إننا نعرف أن شركة عربية كبيرة كانت ستقوم في السودان برأسمال عربي، لاستصلاح الأراضي الشاسعة هناك، حيث تجود الزراعة، لوجود المياه والمناخ المناسبين ... وقد أُعدت الدراسات، لقيام هذه الشركة التي تساهم فيها الدول العربية كلها، والتي تحتاج للإنتاج الزراعي، ثم فجأة، ظهر مرض النوم، الذي أوقف قيام الشركة مؤقتًا ... فبجوار الشركة الزراعية، كانت ستقوم شركة صناعية لتعليب المنتجات الزراعية والحيوانية ... وقد أثبتت تحريات عملائنا أن هناك عصابة خلف انتشار مرض النوم بين الحيوانات للقضاء عليها، وبهذا المفهوم، لا تكون الحرب ضد الثروة الحيوانية السودانية فقط، بل إنها أيضًا ضد الدول العربية كلها، التي تقوم باستيراد احتياجاتها الزراعية والحيوانية من دول غربية وشرقية متعددة.

توقف رقم «صفر» عن الاسترسال في الحديث قليلًا، واختفت الأسهم الحمراء من فوق الخريطة، ثم ظهرت انفجارات صفراء اللون، أشار إليها رقم «صفر» بقوله: هكذا يحدث مرض النوم؛ فإن أفراد العصابة يقومون بتفجير قنابل خاصة، عديمة الصوت، تحمل ملايين الجراثيم والبكتريا، في مساحة معينة، وهم يأخذون اتجاه الريح، لحمل هذه الجراثيم المدمرة إلى حيث توجد الأعداد الكبيرة من الماشية، التي تتنفسها فتصاب بالمرض في دقائق، حيث تؤثر هذه الجراثيم على جهازها التنفسي والهضمي.

ظلت الانفجارات تتوالى على الخريطة، بينما كان الشياطين يتابعونها ... كانت الذرات الصغيرة البالغة الدقة تنتشر مع الرياح، لتغطي مساحة واسعة، وبسرعة حسب قوة الرياح ... ثم ظهرت أسهم صغيرة، تحدد كيفية انتشار الجراثيم، وفي جانب من الخريطة ظهر رسم توضيحي لبقرة، تتنفس، ثم تلك الحركات العصبية التي تصيبها، حتى تنام، ثم تنتهي.

كان رقم «صفر» يقلب بعض التقارير التي وصلت إلى المقر من عملاء رقم «صفر»، أخيرًا قال: إن المعروف أن عددًا من الشركات الأجنبية يعمل في السودان، وهذا ما يجعل مهمتكم عسيرة، ففي الوقت الذي تقوم فيه بعض الشركات بإقامة منشآت هناك، مصانع، أو مزارع حديثة، يمكن أن تكون هناك شركات أخرى، تتحرك في اتِّجاه عكسي، بمعنى أنها تقوم بشن تلك الحرب!

صمت رقم «صفر»، وكان الشياطين قد انتهوا من متابعة ما يحدث فوق الخريطة، وأخذوا يستمعون، فقال رقم «صفر»: إن ما يحدث في جمهورية السودان، لا يحدث في

أي دولة أخرى مجاورة لها، فالهدف محدد، كما أن العدوى يمكن أن تمتد إلى جمهورية مصر، فإن سرعة الرياح يمكن أن تنقل تلك الجراثيم إليها، فالحدود واحدة كما ترون.

صمت قليلا ثم أضاف: إن حرب الميكروبات ليست جديدة في تاريخ البشرية، فالبعض يعودون بها إلى ما قبل الميلاد، غير أنها أصبحت سلاحًا فعالًا في الحرب العالمية الثانية، وكان الألمان، أول من فكر فيها ... وقد استخدمتها أمريكا في حرب فيتنام على نطاق واسع، ضد الحياة كلها، الإنسان، والحيوان والنبات، حتى إنها كانت تبيد قرى بأكملها، أو غابات بأكملها، حتى يظهر الثوار ...

وخطورة هذا السلاح الرهيب أن استخدامه لا يتوقف عند حدود الدول الكبرى فقط، فالدول الصغرى هي الأخرى يمكن أن تستخدمه لأنه قليل التكاليف، بالقياس إلى تكاليف الأسلحة الأخرى ... إنني في النهاية لا أريد أن أحدثكم عن تاريخ هذا السلاح المخيف، ومع «أحمد» دراسة واسعة عنه ... وقسم المعلومات في المقر يضم وثائق هامة، إن كنتم تحتاجون معرفة كل شيء عن هذا السلاح!

عندما كانت أعين الشياطين تلتقي عند «أحمد» كان رقم «صفر» يقول: لقد استطاع «أحمد»، بحاسة شمه القوية للخطر، أن يتبين مغامرتنا القادمة!

ابتعد صوت أقدام رقم «صفر»، بينما استغرق الشياطين في خواطرهم ... إلا أن «إلهام» قالت: أهنئك يا عزيزي «أحمد»!

ابتسم «أحمد»، وقال: إن التهنئة مؤجلة حتى الانتهاء من المغامرة!

ضحك «باسم»، وقال: أرجو ألا ننام نحن أيضًا.

فضحك بقية الشياطين.

علقت «زبيدة»: إنها حرب غريبة فعلًا، أن ينام الإنسان إلى الأبد! وفي منتهى الراحة!

قال «أحمد»: إنهم يسمونها الحرب المريحة!

قال «رشيد»: ومتى كانت الحرب مريحة؟ إنها خسارة في النهاية، فما دامت هناك حرب، فهناك خسائر في الطرفين!

عاد رقم «صفر»، ليقول لهم: لقد قُتل أحد الخبراء الذين دعتهم حكومة السودان، لبحث ما يحدث. إن البروفيسور «داندي» الذي قُتل يعتبر واحدًا من أهم الخبراء في الحرب الكيماوية، وهناك ثلاثة آخرون في السودان الآن يقومون بأبحاثهم على تلك الحرب، وما دام قد قُتل واحد، فمن الضروري أن تحدث محاولات أخرى للتخلص من الباقين ... يبدو أن العصابة الجديدة فرع في العصابة الأصلية «سادة العالم».

مرت لحظات صمت، ولم يكن عند الشياطين ما يمكن أن يسألوا عنه، وأخيرًا قال رقم «صفر»: أتمنى لكم التوفيق.

سألت «ريما» «أحمد»: هل هناك فارق بين «حرب الكيماويات» و«حرب الميكروبات»؟

مرت لحظة قبل أن يجيب «أحمد»: لا يوجد فارق، إنها في النهاية الحرب المريحة!

«ريما»: ولماذا سُميت هذه «حرب الكيماويات»، وتلك «حرب الميكروبات»؟

«أحمد»: الكيماويات تشمل الغازات السامة والخانقة والمُسيلة للدموع والملونة ... أما الميكروبات فتشمل البكتريا والجراثيم. وهي سلاح كامل، بين أسلحة الجيوش اليوم.

قالت «هدى»: لكن هذه الأسلحة، محرمة دوليًّا!

ابتسم «أحمد» وقال: في الحرب، لا يوجد شيء محرم ... إنَّها الدمار في النهاية، الدمار للإنسان، وحضارته.

عندما أصبح «أحمد» في حجرته عاد بسرعة إلى البحث الذي كان يقرؤه، وعَلَت الدهشة وجهه، فقد وقعت عيناه على رقم تفحصه طويلًا، ثم أخذ يقرأ الفقرة التي احتوت الرقم، كانت الفقرة تتحدث عن عدد الجراثيم والبكتريا التي توصَّل إليها سلاح الحرب الغريبة، كان الرقم ١٦٠، وردد «أحمد» بينه وبين نفسه: إلى هذا الحد يقوم الإنسان بتدمير نفسه؟!

لم يكد ينتهى من جملته، حتى كانت تعليمات رقم «صفر» قد وصلت إليه، مكتوبة بالحبر السري فوق اللوحة الصغيرة المثبتة أعلى جهاز الإرسال.

كانت التعليمات تحدد المجموعة التي سوف تتحرك، وكانت المجموعة تضم: «أحمد»، و«عثمان» و«مصباح»، و«زبيدة»، و«خالد»، وكانت ساعة التحرك «م».

حديث مع ... «ود حامد»

عندما نزلت الطائرة في مطار «الخرطوم» كانت الممرات السوداء تلمع تحت مياه المطر الغزيرة، ففي هذا الوقت من العام تهب الرياح الموسمية، التي تحمل كميات هائلة من المطر.

اقترب «خالد» من «أحمد» وسأل: ألا تؤثر الأمطار في تلك الجراثيم القاتلة؟

أجاب «أحمد»: إنهم يربونها تربية خاصة في مزارعهم حتى تتحمل كل أنواع الطقس، فهي تستطيع أن تعيش في هذا الجو الصيفي الممطر.

ثم ابتسم قائلًا: لعلها جراثيم موسمية، كالرياح!

لكنْ ثمة منظر لفت نظر «زبيدة» داخل الطائرة، كان هناك رجل ينام وقد أخفى وجهه تحت قبعته.

اقتربت من «أحمد» ثم لمست ذراعه، فنظر إليها هزَّت رأسها في اتِّجاه الرجل النائم. اتجهت عينا «أحمد» إلى المكان، في نفس اللحظة، التي رفع فيها الرجل يده، يزيح قبعته من فوق وجهه، ثم نظر من النافذة التي بجواره وتمطى ثم قال، وكأنه يتحدث إلى نفسه: رحلة طيبة!

نظر إلى «أحمد» وسأل: هل وصلنا من زمن؟

اقترب «أحمد» مبتسمًا، ثم قال: منذ قليل، لكن يبدو أن الرحلة كانت طويلة، بالنسبة إليك.

تمطَّى الرجل مرة أخرى، وهو يزيح القبعة أكثر وقال: فعلًا، لقد كانت رحلة طويلة.

أحمد: لعلك لم تبدأ الرحلة من «القاهرة»!

الرجل: فعلًا بدأتها من «بيروت»، لكنني لم أنم إلَّا عندما غادرت الطائرة مطار «القاهرة».

قالت المذيعة: إن سيارة خاصة، تقف الآن أمام الباب مباشرة، حيث إن المتوقع أن يستمر المطر طويلًا.

اتَّجه الركاب القليلون من الباب، وكان الشياطين متفرقين بينهم، وأخذ الواحد بعد الآخر يختفي من داخل الطائرة، ليظهر خارجها، وكان سلم الطائرة مغطًى؛ ولذلك لم يصِب المطر أيًّا من الركاب، الذين أخذوا أماكنهم داخل السيارة، فتحركت مباشرة ... وكان طاقم الطائرة يجلس في جانب منها.

ظهر وجه الرجل في اتجاه الطاقم هو يسأل: هل تصل الحقائب حالًا؟

أجاب أحد أفراد الطاقم: نعم؛ قبل أن تنتهي من الإجراءات.

فكر «أحمد» قليلًا: لا بُدَّ أنه لم يأتِ «السودان» قبل ذلك، وإلا كان قد عرف أن خدمة الطائرات السودانية ممتازة.

وصلت السيارة إلى الباب، فقفزوا بسرعة إلى داخل صالة المطار، وعندما انتهت الإجراءات، كانت الحقائب في انتظارهم.

لمح «أحمد» الرجل وهو يأخذ حقيبة من فوق السير الدائري الذي يحمل الحقائب فتقدم منه في هدوء، وسأله: هل هذه أول مرة تأتي فيها إلى «السودان»؟

أجاب: نعم؛ ولولا أنَّها مهمة خطرة، ما كنت قد أتيت في هذا الوقت بالذات، فأنا أعرف تلك الأمطار الصيفية الغزيرة.

كانا يمشيان معًا، بينما بقية الشياطين، يتابعونهما ... واجتازا الصالة، ثم خرجا إلى الساحة الخارجية، فارتفع صوت الميكروفون الداخلي: «السيد «دان» يتفضل في مكتب استعلامات المطار.» وتكررت الجملة عدة مرات قبل أن يلتفت الرجل قائلًا: إنهم يستدعونني.

قال «أحمد»: لا بُدَّ أن أحدًا في انتظارك.

هز «دان» رأسه وهو يقول: وداعًا.

حيَّاه «أحمد» وظل يرقبه وهو يأخذ طريقه إلى مكتب الاستعلامات.

وفي النهاية، أشار «أحمد» إلى تاكسي، فاقترب منهم، وبسرعة كانوا داخله.

قال «عثمان»: إلى فندق «النيل الأبيض».

كانت السيارة تتقدم ببطءٍ بتأثير المطر الشديد، وسألت «زبيدة»: هل يظل المطر أيَّامًا؟

أجاب السائق: نعم؛ وقد ينتهي بسرعة. إن ذلك يخضع لسرعة الرياح!

«زبيدة»: وهل هي شديدة الآن؟

«السائق»: بعض الشيء.

كانت مساحات الزجاج الأمامي، لا تتوقف عن الحركة وهي تزيل المطر، ولم يظهر أي شيء على جانبَي الطريق، فأغمض «أحمد» عينيه واستغرق في التفكير.

وعندما توقفت السيارة أمام الفندق، قال السائق: إقامة سعيدة.

شكره الشياطين، وأخذوا طريقهم إلى الداخل، وكانت صالة الفندق رطبة قليلًا، بعكس الجو الخارجي الحار بعض الشيء، وشعر الشياطين بالنشاط، فاتَّجه «عثمان» إلى مكتب الاستعلامات وحجز الحجرات المطلوبة، فأخذ الشياطين طريقهم إلى المصعد، حيث كانت حجراتهم في الطابق السادس، وعندما تفرقوا، كانوا قد اتفقوا على اجتماع الغد في العاشرة صباحًا، وعندما ضمتهم حجراتهم لم يكن أمام أي واحد منهم، إلا أن يستغرق في النوم.

غير أن «زبيدة» كانت أول من استيقظ في الصباح، وفتحت نافذة حجرتها. وكانت السماء صافية تمامًا، حتى بدت زرقتها قوية.

كان الفندق يقع على ناصية شارع كبير، تبدو حركته نشيطة. وظلت «زبيدة» ترقب حركة الشارع، إلا أن جرس التليفون استدعاها. وعندما رفعت السماعة، كان صوت «أحمد» يلقي إليها تحية الصباح.

وقبل أن تنقضي ربع ساعة، كان الشياطين جميعًا في حجرة «أحمد»، وكان يبسط أمامه خريطة لأفريقيا، وقد ثبَّت عليها بعض الدبابيس الملونة، يحدد بها المنطقة التي تقع فيها الأحداث.

تقدمت «زبيدة» وبدأت تعد الساندويتشات للشياطين، بينما «أحمد» قد بدأ الكلام، وأشار بقلم رفيع في يده يحدد المساحة المقصودة: هذه هي المساحة التي سوف نتحرك فيها، إنها تقع بين خطي عرض ١٠، ١٥ درجة، وخطي طول ٢٥، ٣٥ درجة، وهي منطقة مراعٍ. وتقع كلها في مديرية «كردفان». إن أمامنا أربع مدن رئيسية، سوف تبدأ منها حركتنا. «الخرطوم» حيث يمتد منها خط حديدي إلى «واد مدني»، الذي يمتد إلى «الأبيض» و«الفاشر»، وخط آخر يبدأ من «الخرطوم» إلى «الأبيض» مباشرة. وداخل شبكة الخطوط هذه، تتناثر القرى، كما نرى، مثل «الرهد» و«سنجكاي» و«أم روابة» و«رابة» ... إننا نستطيع أن نبدأ حركتنا من الآن، بالرحيل إلى «الأبيض»، فهي أكثر المدن التي تصلح لإطلاق «قنابل النوم».

سأل «مصباح»: ولماذا اخترت مدينة «الأبيض» بالذات، وليست مدينة أخرى، مثل «الفاشر»؟ إنها هي الأخرى تقع في قلب منطقة المراعي.

أجاب «أحمد»: إن جراثيم المرض، البالغة، تحتاج إلى رياح قوية حتى تنشرها في أكبر مساحة ... ولأن مدينة «الأبيض» تقع في الجنوب أكثر؛ ولأن الرياح التي تهب في هذه المنطقة في هذا الوقت من العام، هي رياح جنوبية تأخذ اتجاهها إلى الشمال، فإن «الأبيض» هي المدينة المناسبة.

قال «خالد»: إن قنابل الجراثيم، ليست صغيرة الحجم؛ ولذلك فإن مرورها إلى داخل «السودان» يمكن أن ينكشف، وأظن أن العصابة ليست غبية.

ابتسم «أحمد» وقال: انظر معي إلى الخريطة، هناك ست دول تحيط بـ «السودان»؛ «مصر» من الشمال، «إثيوبيا» في الشرق، «أفريقيا الوسطى» في الغرب، «كينيا»، و«أوغندا» و«زائير» في الجنوب ... وعن طريق حدود أي دولة منها، يمكن أن تمر القنابل المطلوبة؛ خصوصًا في الجنوب، حيث توجد مساحات واسعة من المستنقعات، والأماكن المجهولة.

قال «خالد»: هل ستأخذ طريق «الخرطوم» ... «واد مدني» ... «الأبيض»؟ أم أننا سنأخذ طريق «الخرطوم» «الأبيض» مباشرة؟

لم يجِب «أحمد» على الفور، في نفس الوقت الذي قال فيه «مصباح»: أعتقد أننا ينبغي أن ننقسم إلى مجموعتين، مجموعة تأخذ الطريق الأطول، ومجموعة تأخذ الطريق الأقصر؛ بذلك يشمل بحثنا مساحة أكبر.

مرت لحظات، بعدها قال «أحمد»: إنني موافق.

وعلينا أن نتحرك أنا و«عثمان» إلى «الأبيض» مباشرة.

غادر الشياطين الفندق، وأخذوا طريقهم إلى محطة «الخرطوم» الرئيسية؛ حيث تنطلق القطارات إلى كل أنحاء السودان، وكان قطار «الخرطوم-واد مدني» يتحرك أوَّلًا، فتقدم «أحمد» و«زبيدة» و«خالد» فركبوا، ثم وقفوا في النافذة يودعون «مصباح» و«عثمان».

ظل الاثنان يتباعدان مع حركة القطار، حتى اختفيا تمامًا عن أعين الشياطين الثلاثة، وكان القطار يكاد يكون خاليًا، ففي العربة التي يجلس فيها الشياطين، لم يكن هناك ركاب سوى ثلاثة من السودانيين، كل منهم يجلس في مقعد منفرد، فقالت «زبيدة»: أعتقد أننا ينبغي أن نتحرك قليلًا داخل القطار.

قامت، واتجهت إلى مؤخرة العربات، في نفس الوقت الذي اتَّجه فيه «خالد» إلى مقدمتها، وظل «أحمد» في مكانه، يمثل غرفة عمليات الشياطين.

وقف «أحمد» أمام النافذة، وفجأة؛ لفت نظره من بعيد، دخان كثيف كان ينبعث من انفجارات متتالية، وينتشر بسرعة، حتى يغطي وجه الخضرة، فقال في نفسه: لا أظن أن هذه «قنابل النوم»، وإلا كانت شيئًا ساذجًا؛ لأنَّها مكشوفة! قطع تفكيره صوت سعال مرتفع، فالتفت إلى مصدره، كان أحد الركاب مصابًا بنوبة سعال حادة، فأسرع إليه، في نفس اللحظة التي كان الآخران ينظران إليه. اقترب من الرجل وقال: أي خدمة أستطيع أن أؤديها؟

هزَّ الرجل رأسه بمعنى لا. غير أن نوبة السعال، اشتدت أكثر فأسرع «أحمد» إلى حقيبته الصغيرة، فأخرج منها زجاجة بها سائل أخضر، مصنوع من النعناع، يُستخدم في حالات ضيق التنفس، وعاد إلى الرجل بسرعة، ثم أمسك بوجهه، وصب نقطتين من السائل في فمه ... ابتلع الرجل السائل، ثم أخذ يتنفس في عمق، وبدأ السعال يخف، وظهرت علامات الراحة على وجه الرجل، حتى هدأ تمامًا، فقال: إنني شاكر لك جدًّا هذه الخدمة.

هزَّ «أحمد» رأسه مبتسمًا، فقال الرجل: اسمي «ود حامد»، وأعمل في تربية الماشية.

كانت هذه فرصة طيبة، حتى يبدأ «أحمد» علاقة هامة في طريق مهمته، فقال: اسمي «رءُوف» من مصر!

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة، وهو يقول: أهلًا بك في بلدك ... لعلك في رحلة.

أحمد: نعم؛ فقد عشت عمري أتمنى زيارة «السودان».

ود حامد: لقد زرت «القاهرة» كثيرًا، ولي فيها أصدقاء من تجار الماشية، لكنني في الفترة الأخيرة، لم أستطع السفر إليكم، بسبب الكوارث التي تنزل بالماشية عندنا!

أحمد: لقد سمعت أن أمراضًا غريبة تصيبها، حتى تكاد تقضي عليها!

ود حامد: نعم مع الأسف ولا ندري سر مرض النوم الغريب الذي يصيبها، وبرغم أن الحكومة تحاول محاولات مضنية، إلا أن الإصابات تزداد يومًا بعد يوم!

صمت الاثنان قليلًا، غير أن «أحمد» عاد للحديث: لقد شاهدت منذ قليل انفجارات تثير دخانًا كثيفًا في اتِّجاه الشرق!

ود حامد: إنها عملية مكافحة دود القطن الذي يبدأ حركته الآن، حتى يكاد يقضي على المحصول.

هزَّ «أحمد» رأسه، فقد صدق تفكيره، وقال: هل تذهب إلى «واد مدني»؟

ود حامد: نعم؛ وسوف أبقى هناك لأيام، ألقى فيها تاجرًا أجنبيًّا، جاء ليعقد صفقة معنا، ثم أذهب إلى «الأبيض»، حيث يوجد المكتب الرئيسي لشركتي.

أحمد: أظن أن منطقة «الأبيض» هي مركز منطقة المراعي هناك.

ود حامد: هذا صحيح، وهي أكبر المدن في هذه المنطقة.

ابتسم «أحمد» وهو يقول: لكم تمنيت أن أكون راعيًا، إن هذا العمل يثيرني جدًّا.

قال «ود حامد»: غير أنه متعِب، ويحتاج إلى مهارة خاصة. وصمت قليلًا ثم أضاف: إذا كنت تريد تجربة هذا النوع من الحياة، فاصحبني حتى أنهي مهمتي في «واد مدني»، ثم ننطلق معًا إلى «الأبيض»، وهناك يمكن أن تمارس اللون الذي تحبه.

فجأة، ظهر «خالد»، وكانت تبدو على وجهه علامات الجد الشديد، وفي نفس اللحظة، ظهرت «زبيدة» وكانت تبدو هادئة تمامًا، فأشار «أحمد» إليها، ثم قال مخاطبًا «ود حامد»: إنهما صديقاي ونحن نقوم بالرحلة معًا!

اقترب الاثنان منهما، فقدمهما «أحمد» إليه، وعندما انهمكت «زبيدة» مع «ود حامد» في الحديث، بينما كان «خالد» يهمس في أذن «أحمد» بكلمات أدهشته.

بارازيني أول الخط

نظر «أحمد» إلى «ود حامد» مبتسمًا وقال: أستأذنك لحظة!

هزَّ الرجل رأسه مبتسمًا ابتسامة طيبة ثم اشتبك في الحديث مرة أخرى مع «زبيدة» ... وفي نفس الوقت الذي انضم فيه إليها «خالد»، أخذ «أحمد» طريقه إلى نفس الاتجاه الذي جاء منه «خالد»، وعندما دخل العربة الأخرى، وقعت عيناه عليه.

تشاغل بالنظر إلى أرفف العربة، وكأنه يبحث عن حقيبة وكانت العربية ممتلئة قليلًا بالركاب؛ وفجأة سمع صوتًا: هيه، أنت أيها الشاب!

نظر في اتِّجاه مصدر الصوت، كان هو «دان» الرجل الذي تحدث إليه في الطائرة.

رسم «أحمد»، ابتسامة عريضة على وجهه، ثم تقدم إليه، وكأنه صديق قديم: أهلًا بالسيد «دان».

ظهرت الدهشة على وجهه، وقال ضاحكًا: ما زلت تذكر اسمي؟

حيَّاه بحرارة، ثم دعاه للجلوس، حيث كان يجلس وحده وقال «دان»: هذه فرصة طيبة أن القاك مرة أخرى، فإلى أين أنت ذاهب؟

لم يرد «أحمد» مباشرة، وأكمل «دان»: الشاي المغلي؛ إنه أعظم شيء يقتل هذه الحرارة، إنها تجربتي الشخصية، لقد كنت أفعل ذلك، عندما كنت في «الهند» حيث تكون الحرارة الرطبة، مرتفعة جدًّا، قل لي، إلى أين؟

رد «أحمد»: إلى «الأبيض»، في عمل.

ظهرت الدهشة على وجه «دان» وقال: أوه، نحن تسير في اتجاه واحد، يبدو أننا سوف نكون أصدقاء.

أحمد: أتمنى ذلك.

دان: هل تمتلك قطيعًا ترعاه؟

أحمد: لا، إنني أعمل عند صديق سوداني. وأنت هل تعمل في تجارة الماشية؟

ضحك «دان» وهو يقول: لا، إنني أعمل في إنقاذها.

أحمد: كيف؟!

دان: إنني خبير في أمراض الماشية، وقد جئت أشارك في هذه الحرب الدائرة الآن.

مر الجرسون، فناداه «دان»، وطلب كوبي شاي …

كان «أحمد» يفكر: هل هو أحد الخبراء الثلاثة الذين ذكرهم رقم «صفر»؟! هل يسأله؟ لكنه لم يفعل ذلك، ونظر إليه «دان» بطرف عينه، ثم ابتسم قائلًا: فيمَ تفكر؟!

بوغت «أحمد» بالسؤال، إلا أنه أجاب بسرعة: في الحرب!

دان: أي حرب تعني؟ إن الحروب كثيرة؛ حتى إنها تكاد تغطي كوكبنا الذي نعيش فوقه.

أحمد: حرب الماشية.

دان: إنها مسألة طبيعية. إن مرض النوم يمكن أن ينتشر في أي مكان، ولقد كنت في الهند، لنفس السبب!

أحمد: وهل توقف هناك؟

دان: في طريقه إلى ذلك.

أحمد: إذن، توجد بعثة طبية هنا، من أجل هذا المرض الغريب.

دان: نعم، توجد بعثة كبيرة، على رأسها ثلاثة من الخبراء … أرسلتهم الأمم المتحدة، لإنقاذ ثروة السودان الحيوانية.

وصل الجرسون، وقدَّم لهما الشاي، فأخذا يرشفانه في هدوء، مع رتابة صوت العجلات، واهتزاز القطار.

قطع صمتهما قول «دان»: إنني لم أتعرف عليك حتى هذه اللحظة.

قال «أحمد»: اسمى رءُوف.

دان: أرجو أن نتبادل العناوين، فربما احتاج أحدنا الآخر.

ابتسم «أحمد» قائلًا: من المؤكد أنني سوف أحتاج إليك ما دمت مسئولًا عن قطيع، غير أني سوف أكون بلا عنوان ثابت.

دان: إذن؛ أعطيك عنوان البعثة.

أخرج من جيبه مفكرة صغيرة، قلَّب بعض أوراقها، ثم قال: هل لديك ورقة؟

أخرج «أحمد» مفكرة صغيرة، وقال «دان»: اكتب بعثة الأمم المتحدة. ن. «واد مدني».

ما إن انتهى «أحمد» من كتابة العنوان، حتى اقترب رجل ضخم الجثة منهما، وقال بصوت خشن: أهلًا بالدكتور «دان».

رفع «دان» وجهه إليه، وظهرت عليه ابتسامة مصطنعة وردَّ: أهلًا.

الرجل: معذرة، إن كنت قطعت حديثكما، غير أنني معجب بالدكتور «دان» كثيرًا، فقد قرأت له عددًا من الأبحاث الطبية.

ظهرت الراحة على وجه «دان»، فوقف «أحمد» وقال «دان»: إلى أين أيها الصديق، إن الطريق لا يزال طويلًا؟!

قال الرجل على الفور: أستأذن الصديق في بعض الوقت، فعندي بعض الأسئلة التي أريد أن أطرحها على الدكتور: إنني أعمل في الرعي، حياهما «أحمد» وانصرف، عندما قال «دان»: لا تنسَ.

أخذ «أحمد» طريقه إلى حيث «خالد» و«زبيدة» غير أن صورة الرجل الضخم، ظلت تفرض نفسها على ذهنه وعندما وصل إليهما، كانا لا يزالان يتحدثان، إلى «ود حامد»، فقال الرجل بوجهه الطيب: لقد تأخرت.

ابتسم «أحمد»، قائلًا: لقد التقيت بصديق. ثم أضاف بعد لحظة: هل لا يزال الطريق طويلًا؟

ود حامد: نعم؛ سوف نبيت الليلة في القطار.

لم يستمر الحديث طويلًا، حتى انصرف الشياطين وجلسوا متقاربين ... كان الجو لا يزال ثقيلًا داخل القطار، الذي لم تكن سرعته مرتفعة.

أخبرهما «أحمد» بالحديث الذي دار مع «دان» وحضور الرجل الضخم ... وكان الضوء خارج زجاج نافذة القطار، يخفت شيئًا فشيئًا، وكان هذا يعني أن الليل يأخذ طريقه إلى الوجود ... وشعر الشياطين بالملل، فقد كان الوقت يمر بطيئًا.

فجأة؛ وقف «أحمد» وهو يقول: سوف أذهب إلى «دان».

سأله «خالد»: لماذا؟!

أجاب: عندي إحساس غامض أن هذا الرجل سوف يقودنا إلى الطريق.

نظرت «زبيدة» إلى «أحمد» وقالت: إن هناك سببًا منطقيًّا لذلك؛ إن دكتور «دان» شخصية هامة، ولا أظن أنه سوف يفلت من العصابة، التي قتلت «داندي»، كما أخبرنا رقم «صفر».

هزَّ «أحمد» رأسه، وهو يقول: إنها وجهة نظر صحيحة، ربما يكون إحساسي قد سبق تفكيري، سوف لن أتأخر.

أخذ «أحمد» طريقه إلى عربة «دان»، وعندما اقترب، ناداه «دان»: أيها الصديق الراعي.

حيًّا «أحمد»، الرجل الضخم، الذي قدمه «دان»: مستر «برازيني» تاجر جلود.

جلس «أحمد» معهما ودار الحديث، وكان «برازيني» يشكو من كساد تجارته بسبب ما يحدث للماشية، فهذه الأعداد الكبيرة التي تموت لا تجد فرصة الاستفادة منها، فذلك يحتاج إلى جهد كبير، ومن الضروري أن يحضر عمالًا كثيرين، حتى يمكن أن يقوموا بعملية نزع فروة الماشية.

قال «أحمد»: إن الأيدي العاملة هنا رخيصة.

أجاب «برازيني»: إن درجة الحرارة مرتفعة، وهذا يعني أنه من الضروري نقل الفراء بسرعة حتى لا يتلف.

دار الحوار بين «دان» و«برازيني»، بينما كان «أحمد» يرقب الرجلين، وفجأة اقترب رجل من «دان» وانحنى يهمس في أذنه، فابتسم «دان»، ثم نظر إلى الرجل وقال: إنهما صديقان، يمكن أن تنضم إلينا.

انحنى الرجل مرة أخرى، وتحدث إليه، فهزَّ «دان» رأسه، وهو يردد: وهو كذلك، وهو كذلك.

ابتعد الرجل في هدوء، وإن ظل واقفًا عند بوفيه العربة يرقبهم.

فكر «أحمد» قليلًا، وقال لنفسه: لا بُدَّ أنه حرس للدكتور. لقد كانت «زبيدة» محقة في تفكيرها.

نهض «دان» وهو يقول: إذن، نلتقي في الصباح.

تقدم «دان» وتبعه «أحمد» في الطريق إلى العربة، في نفس اللحظة التي ظل فيها «برازيني» يجلس مكانه، وعندما وصلا إلى باب العربة، التفت «أحمد» وألقى نظرة سريعة في اتجاه «برازيني»، وكان قد غيَّر مكانه، فأصبح يراهما ... عبرا العربة، حتى اقتربا من مقعد «دان» الذي حيَّاه «أحمد»، وانصرف، وأخذ طريقه إلى الشياطين.

كان «خالد» يقرأ في كتاب، بينما «زبيدة» قد شردت تفكر، فانضم إليهما، ونقل ما دار بين الثلاثة، فقالت «زبيدة» في النهاية: من يدري؟ لعله واحد منهم!

فجأة، اهتزَّ القطار بعنف، أثر فرملة قوية، فاستيقظ الجميع في فزع، قال «خالد»: ماذا حدث؟

وفي أقل من لمح البصر، كان «أحمد» قد تخلص من عباءته، وقفز في اتجاه عربة «دان».

نظر «خالد» إلى «زبيدة»، ثم انطلق هو الآخر خلفه ... وكان هناك صوت طلقات رصاص يرن.

أسرع «أحمد» إلى «دان» فوجده يلفظ أنفاسه الأخيرة، فجرى في اتجاه عربة الطعام، فوجد معركة بالكراسي والأيدي، وبين أفراد المعركة لمح «برازيني»، فقال في نفسه: إنه واحد منهم!

في لمح البصر كان يطير في الهواء، في اتجاه «برازيني» الذي لمحه، فأطلق كرسيًّا في الهواء، اصطدم بـ «أحمد» إلا أن «خالد» كان هو الآخر قد وصل، فعاجله بضربة إلا أن «برازيني» الذي اهتز لحظة، استطاع أن يستعيد توازنه، فلكم «خالد» لكمة قوية جعلته يطير في الهواء في نفس اللحظة التي كان فيها «أحمد» قد طار فوق مستوى المقاعد، ودخل في معركة مع «برازيني».

كانت طلقات الرصاص لا تزال تدوي في الليل خارج القطار، ونظر «أحمد» حواليه، فلم يجد «برازيني» أمامه، فوقف لحظة، وكانت المعركة لا تزال دائرة.

لمح «أحمد» الرجل الذي تحدث إلى «دان» مشتبكًا مع آخر، فأشار إلى «خالد» أن ينضم إليه.

في نفس اللحظة، رأى «برازيني» يفلت من باب عربة الطعام إلى العربة الأخرى، حيث يوجد الباب، فانطلق يعدو بسرعة، إلا أن كرسيًّا طار في الهواء فاصطدم بظهره إلا أن ذلك لم يعطله لقد كان من الضروري أن يلحق بـ «برازيني».

تجاوز العربة، وأصبح عند الباب، إلا أنه وجد الباب مغلقًا، وكان القطار لا يزال واقفًا، فشمل العربة أمامه بنظرة سريعة، وفجأة رنت رصاصة بجوار أذنه، فانبطح على الأرض سريعًا، وتتالت الطلقات، فاضطر أن يزحف تحت الكراسي، هدأ صوت الطلقات الداخلية قليلًا، في نفس الوقت الذي كانت فيه الطلقات الخارجية لا تزال ترن، فخرج في هدوء من تحت الكراسي، ورفع رأسه في حذر، فلمح بطرف عينيه رجلًا يمسك مسدسًا.

أخرج مسدسه، وبدأ يصوبه نحوه، فلمح «برازيني» يظهر من خلف الرجل، ثم يتجه إلى النافذة الزجاجية، ويضربها بمؤخرة مسدسه في عنف.

صوب مسدسه إلى ذراع «برازيني»، ثم ضغط الزناد، وعندما رن صوت الطلقة، انهالت الطلقات فوقه، إلا أنه انبطح تحت المقاعد، وهو يسمع صرخة دوت في فضاء العربة، وعرف أنه أصاب «برازيني».

زحف بسرعة، غير أنه توقف لحظة، كانت أصوات أقدام سريعة تجري، وبدأ القطار يتحرك، لكن حركته كانت بطيئة، ورنت طلقات لها صوت اصطدام بمقاعد العربة.

زحف مرة أخرى، وبدأ يتبين أن هناك تبادل طلقات نارية بين طرفي العربة، وعندما أخذ القطار يسرع، توقف صوت الطلقات في اتجاه واحد، ثم بدأ الصوت يعلو خارج العربة.

أخرج رأسه في هدوء، في اتجاه «برازيني» فلم يجد أحدًا، وسمع صوت «خالد»: لقد ابتلعهم الليل.

خرج بسرعة، فوجد عددًا من الرجال بينهم «خالد» يقفون أمام نافذة مفتوحة، فاتَّجه إليهم بسرعة.

قال واحد منهم: لقد قضوا عليه.

أسرع إلى «دان»، ولكنه كان قد فارق الحياة، فاتَّجه بسرعة إلى مؤخرة العربة، كان هناك شخص ما، يرقد بلا حراك، فانحنى فوقه يتسمع إلى نبضه، وكان النبض ضعيفًا.

قال «أحمد»: إنه لا يزال حيًّا؛ نحتاج لبعض «الكورامين» لتقوية قلبه.

أسرع أحد الرجال واختفى. وقال «أحمد»: هل كانت هناك حراسة للدكتور «دان»؟

رد رجل: إنني الرائد «أبو الحسن»، المسئول عن حراسته.

فنظر «أحمد» إلى الرائد «أبو الحسن»، وقال: يحتاج إلى إسعاف سريع، فحركة القطار، يمكن أن تضره.

قال «أبو الحسن»: ننقله بسرعة إلى عربة الإسعاف.

حمله بعض الرجال، وأسرعوا به، وكانت عربة الإسعاف في نهاية القطار، فدخل «أحمد» معهم، وأخذ الممرض ينزع عنه ملابسه. لفت نظر «أحمد» شيء فيه، فاقترب يتأكد منه، دون أن يلفت نظر أحد.

وعندما بدأ تنفُّس الرجل ينتظم، قال «أحمد»: لا بُدَّ من حراسة مشددة.

وعندما ترك العربة، كان قد تأكد نهائيًّا من الطرف الآخر في حرب الميكروبات.

معركة جانبية في منطقة النمور

كانت عربة القطار التي يركب فيها الشياطين، تضج بالحديث، وكان بعض ركاب العربات الأخرى قد انضموا إليها، وعندما دخلها «أحمد» متمهلًا، وهو يهتز بين المقاعد بتأثير اهتزاز القطار، كان «ود حامد» قد انتقل إلى حيث يجلس الشياطين، في نفس الوقت الذي التفَّ فيه كثيرون حول «خالد» يسألونه عمَّا حدث.

وعندما رأوا «أحمد» التفتوا إليه، فإن الركاب كلهم لم يكونوا يعرفون السبب. فهذه أول مرة، تحدث فيها مثل هذه الحادثة.

وعندما قال «ود حامد» ذلك لـ «أحمد» ابتسم قائلًا: لقد تخلصوا من خبير آخر من خبراء الماشية.

اتسعت عينا «ود حامد» ولمعت وظهرت الدهشة على وجهه، وكأنه لا يصدق ما سمعه واستغرق في التفكير لحظة واستأذن «ود حامد» منصرفًا، وهو يقول بالإنجليزية أيضًا: لنا معًا حديث طويل.

تفرق الركاب، حتى لم يبقَ سوى الشياطين، وقال «أحمد»: إنها عصابة «سادة العالم»!

ثم أخذ يشرح لهما ما حدث حتى رؤية الوشم الذي وجده فوق كتف الرجل المصاب، والراقد في عربة الإسعاف.

أخذ كل شيء يهدأ، وانتظمت عجلات القطار، وبدأ الركاب ينامون، فقد كان الوقت يقترب من الثالثة صباحًا، قالت «زبيدة»: يجب أن تناما قليلًا، وسوف أظل أنا مستيقظة.

أغمضا أعينهما، وإن لم يناما مباشرة، وبدأت أضواء الفجر تأخذ طريقها إلى الوجود بسرعة، وسمعت «زبيدة» صوت «ود حامد» يقول: أيها الأصدقاء، إننا نقترب من «واد مدني».

ردت «زبيدة»: صباح الخير يا عم «ود».

قال «ود حامد»: صباح الخير يا ابنتي، هل لا يزالان نائمين؟

ردت: نعم.

ظهر «ود حامد» في ثيابه البيضاء الناصعة، وقال: يجب أن يقوما، إننا سوف ننزل في خلال نصف ساعة.

فتح «أحمد» عينيه فرآه، وحيَّاه.

قال «ود»: أيقظ «خالد» فإن الصباح هنا جميل تمامًا. و«ود مدني» مدينة تستحق رؤيتها من بعيد.

وقف «أحمد» في نشاط، بينما كان «خالد» قد استيقظ على أصواتهم، ونظر «أحمد» إلى «زبيدة» وقال: سوف أذهب إلى هناك.

فهمت «زبيدة» ماذا يعني، غير أنه لم يكد يصل إلى منتصف العربة حتى رأى الرائد «أبو الحسن». فحيَّاه، وكان الرجل يبدو حزينًا.

قال «أحمد»: إنها خسارة بلا شك.

أبو الحسن: لقد انتهى الآخر أيضًا.

فكر «أحمد» بسرعة، لقد كان الرجل المصاب فرصة، لمعرفة المزيد من التفاصيل، لكنه قال في نفسه أيضًا: لا بأس. إن «برازيني» بداية طيبة.

بدأت تضح معالم «ود مدني»؛ كانت الشمس تغمرها، فبدت كأنها غارقة في ضوء النهار.

قال «ود حامد»: هل ننفذ اتفاقنا؟

ابتسم «أحمد» ورد: بالتأكيد.

أخذت درجة الحرارة تزداد، حتى إن «زبيدة» قالت: ألا تعمل أجهزة التكييف في القطار!

ابتسم «ود حامد» وهو يقول: أي أجهزة يا ابنتي تلك التي تنفع هنا؟!

بدأ القطار يُهَدِّئ من سرعته فقد دخل المدينة، وكانت شبه خالية، إلا من أعداد قليلة متناثرة، ووقف القطار في النهاية، وبدأ الشياطين يغادرونه خلف «ود حامد».

قال الرجل عندما أصبحوا على الرصيف: أنتم في ضيافتي.

نظر «خالد» إلى «أحمد» الذي قال: علينا أن ننتهي من شيء في المدينة أوَّلًا، فهل يمكن أن ... تعطينا العنوان أو رقم التليفون؟

أخرج «ود حامد» بطاقة صغيرة، وقدمها إليه. وكانت البطاقة تحمل العنوان والتليفون. وقال قبل أن يودعهم: سوف أبقى لثلاثة أيام، ثم أرحل إلى «الأبيض» يجب أن أراكم قبل ذلك.

سلموا عليه، ثم أسرعوا بالخروج من المحطة، فاستقلوا تاكسيًا. وسأل «خالد»: أعتقد أن «فندق النيل» هو أقرب الفنادق إلى وسط البلد؟

رد السائق: إنه لا يتوسطها تمامًا، غير أنه فندق جيد.

عرف السائق أن هذه وجهتهم، فأخذ الطريق إلى هناك. وكانت الشوارع تكاد تكون خالية، بفعل حرارة الرياح الموسمية، المحملة بالرطوبة. وعندما توقف التاكسي أمام الفندق، غادروه بسرعة إلى الداخل، حيث كانت الحرارة أقل بكثير، وعندما احتوتهم إحدى حجرات الفندق كان أول شيء فعله «أحمد» هو أن بدأ يرسل رسالة إلى «عثمان» و«مصباح»: من «ش. ك. س» إلى «ش. ك. س» هل قرأتم النشرة؟

وبسرعة جاءه الرد: خبر أول؛ السمك يطفو كثيرًا فوق السطح. خبر ثانٍ؛ لا أثر للصيادين.

أرسل «أحمد» رسالة أخرى: قابلنا أحد الصيادين، غير أنه اختفى، نحن في الطريق، في الوقت المناسب.

نقل رسالة «عثمان» إلى «خالد» و«زبيدة»، وكانت الرسالة تعني أن الماشية ترتفع إصاباتها دون أن يظهر أحد أفراد العصابة.

عقد الشياطين جلسة سريعة فقال «خالد»: أعتقد أن أفراد العصابة، سوف يأخذون طريقهم إلى منطقة المراعي. فالمكان الذي ظهر فيه «برازيني» يقع على خط مستقيم مع مسرح الأحداث، بل إنه يتوسطها تمامًا، فإما أن نعود إلى نفس المنطقة، أو نذهب إلى «الأبيض» بوصفها مركز المراعي.

قالت «زبيدة»: إن «برازيني» لن يظهر هنا مطلقًا، الآن على الأقل؛ ولذلك فإن وجودنا هنا، لن يكون ذا فائدة؛ يجب أن ننطلق لننضم إلى «عثمان» و«مصباح» إنهما في منطقة الأحداث.

لم يرد «أحمد» مباشرة، وظل يفكر قليلًا، بينما كان «خالد» يقول: إننا نستطيع أن نتصل بـ «ود حامد» ثم ننطلق إلى مراعيه هناك. إنه في النهاية فرصة لنا.

قال «أحمد»: إنني أفكر في طريقة أخرى، إن مركز أبحاث الماشية يوجد هنا في «واد مدني»، ولا بُدَّ أن العصابة تدور حوله. لقد تخلصت من اثنين من الخبراء وباقي اثنين.

إنني أعتقد أن العصابة لن تدعهما؛ فإن وجود الخبراء يمكن أن يؤثر تأثيرًا قويًّا على أعمال العصابة، فلا بُدَّ أن هناك أمصالًا ضد هذه الميكروبات.

وإذا كان فريق يعمل في إبادة الماشية في منطقة المراعي، فلا بُدَّ أن فريقًا آخر يدور حول مركز الأبحاث.

خالد: هذه بالتأكيد طريقة جيدة، غير أننا يهمنا الآن أن نوقف هذا الهلاك في منطقة المراعي.

زبيدة: إنني من رأي «خالد».

صمت «أحمد» قليلًا، ثم قال في النهاية: إذن علينا أن نتحرك فورًا.

رفع سماعة التليفون، وأخرج بطاقة «ود حامد» ثم تحدث إليه، وأخبره الرجل أن هناك عربة سوف تنطلق بعد ساعة إلى «الأبيض»، وأنهم يمكن أن يستقلوها، وإن كان السفر بالسيارة شاقًّا إلا أن «أحمد» أخبره إنهم على استعداد للرحيل فورًا.

فقال الرجل إن السيارة سوف تمر عليهم.

عندما وضع «أحمد» سماعة التليفون أخرج جهاز الإرسال وأرسل رسالة سريعة إلى «عثمان» يخبره فيها أنهم قادمون في الطريق.

استراحوا خلال الساعة، ثم أخذوا طريقهم إلى خارج الفندق، حيث جاءتهم السيارة التي انطلقت مباشرة، وكانت السيارة تضم غير الشياطين، سائقها «تونجا»، وهو شاب قوي مفتول العضلات. و«محمدين» مساعد «تونجا» وهو أصغر قليلًا في السن، يتميز بعينين كأنهما عيني الصقر، و«صالح» الذي يُعتَبر الذراع اليمنى لـ «ود حامد»، وهو رجل متقدم قليلًا في السن.

كانت السيارة تنطلق بسرعة خلال شوارع «ود مدني»، وقال «تونجا»: إننا نسرع الآن، حتى نكسب وقتًا، فالطرق وعرة فيما بعد، لكنها ستكون رحلة طيبة.

قال «صالح»: هل تخافون الحيوانات؟

ابتسم «أحمد»، وقال: من المؤكد أنها رائعة في بيئتها الطبيعية.

ضحك «محمدين» وهو يقول: غير أنها تكون رائعة أكثر عندما تهاجمنا.

مضت لحظة، قبل أن يقول «تونجا»: لكننا على استعداد دائمًا.

لم تكَد تمر ساعتان حتَّى بدأت الطبيعة الخلابة تغلب كل شيء، انتهت المناطق العامرة، وبدأت مناطق الغابات. كان الطريق الذي يمر بين الأشجار العالية جدًّا يبدو وكأنه خط رفيع فوق خريطة صغيرة.

سألت «زبيدة»: هل نسافر لساعات طويلة؟

رد «تونجا»: أمامنا تسع ساعات متصلة، يمكن أن تصبح عشرًا أو أكثر، لو اعترضتنا قوافل من أصدقائنا أهل الغابة.

ضحكت «زبيدة» وهي تقول: تقصد أصدقاءنا من الوحوش!

بدأت الحرارة ترتفع أكثر، غير أن الطبيعة الرائعة كانت هي التسلية الوحيدة الآن، وأراد «أحمد» أن يقطع الصمت فسأل «صالح»: هل تقطع هذا الطريق كثيرًا؟

بدأ «صالح» يحكي رحلته مع هذا الطريق منذ كان صبيًّا صغيرًا، وكيف يعرف كل شجرة فيه، وكانت حكايات طريفة، استمع إليها الشياطين في شغف، وكانت تسلية حقيقية لقطع تلك المسافة الطويلة.

فجأة صمت «صالح»، وبدأ يتشمم الهواء ثم قال: نحن مقبلون على معركة.

مد يده، ثم سحب بندقية بجواره حشاها بطلقات الرصاص، وكما فعل «صالح» فعل «محمدين»، وظل «تونجا» ثابتًا خلف عجلة القيادة. نظر الشياطين حولهم من خلال زجاج النوافذ السميك، ولم يكن هناك ما يدل على شيء، غير أنهم فجأة اهتزوا لهذه الأصوات الغريبة التي ترددت في المكان.

قال «صالح»: لقد اقتربوا.

سألت «زبيدة»: ماذا تعني يا عم «صالح»؟

قال في جد: إنه قطيع من النمور. وتشمم الهواء مرة أخرى ثم قال: إنه على بعد أمتار منا.

وفي حركة لا إرادية كان «أحمد» يمد يده إلى مسدسه، في الوقت الذي نظر فيه «خالد» إليه وقال: إنها معركة أخرى.

نظر له «صالح» ثم شعروا فجأة، وكأن عمارة قد سقطت فوق السيارة التي اهتزت بعنف، إلا أن «تونجا» كان يقظًا، فلم يجعلها تنحرف لحظة.

قال «تونجا» بجد شديد: خذوا حذركم.

ما كاد ينتهي من الجملة، حتى ظهر قطيع النمور. وظل «أحمد» ينظر إليه، وكان يربو على العشرة، وقال: إنه قطيع ممتاز.

سألت «زبيدة»: وما الذي سقط فوق السيارة؟

أجاب «صالح»: إنه واحد منها.

كانت النمور تقف في عرض الطريق، وكأنها تقطعه على المارة.

أبطأ «تونجا» من سرعة السيارة، في الوقت الذي قال فيه «خالد»: يجب أن تسرع أكثر.

رد «تونجا» في هدوء: إن الطريق وعر هنا، والسرعة قد تجعلنا فريسة سهلة لهم.

أخذت السيارة تتقدم ببطء حتى أصبحت أمام النمور مباشرة فلم يتحرك واحد منها، وبدأت صيحات كثيرة تملأ المكان، صيحات قرود وطيور، وكأن النمور تعرف كل ذلك، فكانت تنظر إلى أعلى، دون أن تتحرك فتزداد الصيحات، وكأنها صيحات الخوف، واضطر «تونجا» إلى الوقوف، ذلك أن النمور، لم تتحرك من مكانها.

قال «تونجا»: يجب أن تتعامل برفق.

إلا أن «صالح» قال: النمور لا تتعامل برفق.

أخرج فوهة الماسورة من ثقب في مقدمة السيارة، ثم ضغط الزناد، فدوت طلقة سقط على أثرها أحد النمور، فلقد جاءت الطلقة في رأسه مباشرة، وكأن هذه كانت الإشارة، فقد هاجمت النمور السيارة بعنف. لكن «تونجا»، كان خبيرًا، فقد تحرك حركة أسرع، وبدأت المطاردة. كانت النمور، تقفز في الهواء على جانبي السيارة ثم تصطدم بها، حتى إن السيارة كانت تهتز بعنف.

قال «تونجا»: إن الموقف خطر، وهذه النمور، تعرف ماذا تفعل.

كان الطريق وعرًا، حتى إن السيارة لم تستطع أن تسرع أكثر.

قال «صالح»: إننا في خطر! ثم أخرج ماسورة البندقية مرة أخرى، ثم أطلق طلقة أصابت واحدًا في قدمه، وكان النمر قد جُن، فقد هاجم السيارة بعنف وأصبح واضحًا أن السيارة يمكن أن تنقلب، فقد كان اصطدام النمور بها عنيفًا.

قال «محمدين» الذي كان يبدو عليه الخوف: إننا سوف نهلك!

أخرج «أحمد» قنبلة مسيلة للدموع، فنظر له «صالح» وسأل: ماذا سنفعل؟

ابتسم «أحمد» قائلًا: سوف ترى.

أشعل فتيل القنبلة، ثم فتح النافذة بسرعة وقذفها بين النمور وأغلق النافذة فانفجرت القنبلة محدثة صوتًا تردد في جنبات الغابة، ثم بدأت الغازات تنتشر بسرعة. وفي لحظات، كانت النمور تأخذ طريقها إلى داخل الغابة.

كان الشياطين يراقبون انسحاب النمور السريع بمتعة. وقال «تونجا»: لماذا لم تفعل ذلك منذ البداية؟!

قال «أحمد»: إنها تجربة مثيرة، لقد كنت أريد أن أرى كيف تتصرف.

أخذت السيارة تتقدم أسرع بعد أن مرت من المنطقة الوعرة، وقال «محمدين»: هل تعطيني واحدة منها؟ فضحكوا جميعًا.

وقال «أحمد»: قد تنفعنا مرة أخرى.

انطلقت السيارة في هذه المنطقة من الطريق، وقال «تونجا»: الطريق هنا جيد. سوف نسرع قليلًا؛ حتى نعوض الوقت الذي أضاعه أصدقاؤنا.

أخذ الجميع يتحدثون عن الموقف، بينما بدأ «صالح» يحكي لهم حكاية عن حادثة مماثلة. كان يحكي بالتفصيل حتى إن «محمدين» قال: يا عم «صالح» هل يمكن أن تحكي بلا تفاصيل؟

ابتسم الرجل وقال: لقد حكيتها لك من قبل، فدعني أحكيها للأصدقاء.

ولم يكد «صالح» يبدأ في تفاصيل الحكاية، حتى رنت طلقة، مرت بجوار كاوتش السيارة، وقال «تونجا» صائحًا: هناك شيء غير طبيعي!

فجأة، دارت السيارة حول نفسها، حتى اصطدمت بساق شجرة ضخمة، وقال «تونجا»: لقد أصيبت العجلة الأمامية! ولم تكد السيارة تقف، حتى انهال الرصاص من كل جانب.

برازيني ... مرة أخرى

قال «صالح» بسرعة: لا تخشوا شيئًا، إن السيارة مدرعة فظلوا داخلها صامتين، وظلت الطلقات تنهال، غير أن أحدًا لم يظهر.

قال «تونجا»: هل نظل هكذا؟! يجب أن نغير الكاوتش.

قال «أحمد»: ينبغي أن ننزل؛ بعضنا يتولى الحراسة حتى ينتهي «تونجا» من عمله.

فتح «أحمد»: باب السيارة في هدوء، ولم يكد يتقدم حتى دوت طلقة بجوار قدمه، فارتد بسرعة، وصرخ «صالح»: أغلق الباب، وإلَّا أصبحنا هدفًا سهلًا.

أغلق «أحمد» الباب وهو يقول: إنهم يروننا جيدًا، وإلا ما أصابوا الباب عند فتحه.

ظلوا داخل السيارة، إلا أن «أحمد» كان يفكر بسرعة، فقال لـ «تونجا»: أعطني مكانك.

أخذ مكان «تونجا» ثم فتح الباب، ونزل في حذر وهو يقول: اتبعوني من نفس المكان، فالباب هنا، يختفي خلف شجرة.

نزلوا الواحد بعد الآخر، ثم انبطحوا تحت السيارة، وسأل «خالد»: أين العجلة الاحتياطية.

قال «تونجا»: أسفل السيارة.

أخرج من جيبه مفتاحًا، ثم زحف أسفل السيارة، وفي نفس الوقت كان الباقون يراقبون المكان.

عاد «تونجا» وهو يسحب العجلة الاحتياطية وقال: «خالد»، عليك برفع السيارة، إن «محمدين» الآن في حالة لا تسمح له بالحركة.

مد «خالد» يده، وأخذ الرافعة وبدأ يثبتها أسفل السيارة، وعندما بدأ يحركها، أصدرت صوتًا، فتوقف إلا أن الصوت الذي صدر من الرافعة، كان كافيًا، ليبدأ صوت الرصاص يتردد حولهم.

أشار «أحمد» إلى «زبيدة»، وزحف في اتجاه مختلف بعيدًا عن السيارة، وتبعته «زبيدة» في هدوء، وعندما أصبح بعيدًا، وجه مسدسه لنفس الاتجاه الذي كانت تأتي منه الطلقات، وهمس لـ «زبيدة»: علينا أن نشغلهم، ونبعد أنظارهم عن السيارة.

أخذا يطلقان الرصاص بغزارة، فصمت الذين كانوا يطلقون الرصاص، ثم فجأة انهال الرصاص في اتِّجاه «أحمد» و«زبيدة».

قال «أحمد» هامسًا: لقد نجحت الخطة، لكن السيارة، لا تستطيع أن تتقدم الآن، حتى لو أبدلوا الكاوتش. إنهم يستطيعون إصابتها مرة ثانية، وثالثة.

أخرج جهاز الإرسال الصغير، ثم أرسل رسالة إلى «خالد» فجاءه الرد بسرعة: لقد انتهينا، لكننا لا نستطيع الحركة الآن. ثم أرسل رسالة أخرى: دعهم يتقدمون بالسيارة، وسوف نغطيهم.

مضت لحظة، قبل أن يرد «خالد»: إن «صالح» لا يريد أن يتركنا.

أرسل رسالة جديدة: دعه ينصرف، وسوف نلحق به، بعد خمسة كيلومترات، انضم إلينا، وقل لهم، ألَّا تتحركوا قبل أن نطلق نحن الرصاص، فسوف يكون إشارة الانطلاق.

صمت كل شيء، وأصبح الجو مشحونًا بالحذر، ولم تمضِ دقائق حتى كان «خالد» قد انضم إليهما، فأخرج «أحمد» قنبلة مسيلة للدموع، ثم أشعل فتيلها، ورمى بها في اتجاه الآخرين، في نفس الوقت الذي بدأ فيه «خالد» و«زبيدة» إطلاق الرصاص.

سمع الشياطين صوت محرك السيارة يدور في عنف، ثم انطلقت، وأخذ الصوت يبتعد، بينما ظل إطلاق الرصاص متبادلًا ... كان النهار يغطي كل شيء، إلا أن الحذر كان يمنع الجميع من الحركة.

لم تمضِ لحظات، حتى توقف إطلاق الرصاص، وانتشر الصمت، حتى الحيوانات فلم يكن يُسمَع لها صوت. ويبدو أن أصوات الرصاص قد أفزعتها؛ فلاذت بالفرار بعيدًا عن المكان.

همس «أحمد»: يجب أن نتحرك في هدوء.

أخذ الشياطين يزحفون، وهبت رياح جنوبية لكنها لم تكن قوية.

قالت «زبيدة»: هذه هي الرياح التي يستخدمونها في نقل الجراثيم.

ظلوا يزحفون، مبتعدين عن المكان، ثم أخرج «أحمد» بوصلة صغيرة، ونظر فيها، واستمر في زحفه.

قال «خالد»: أعتقد أننا ابتعدنا بما فيه الكفاية.

نظر «أحمد» حواليه في حذر ثم أخرج منظاره المكبر، وبدأ يرى المنطقة حوله. لم يكن يظهر شيء إلا الأشجار الكثيفة فقط، هي التي تغطي المكان ... وقف «أحمد» فوقف «خالد» و«زبيدة».

قال «أحمد»: علينا أن نسرع، حتى لا نتأخر عليهم.

أخذوا يجدِّون في الجري، بينما ارتفعت الحرارة أكثر واشتدت معها سرعة الرياح ... ولكن فجأة، توقف «أحمد»، وهو يشير بيديه؛ كان هناك نمر ضخم، يرقد تحت شجرة.

همس: علينا أن نكون حذرين. إن النمور لا تعرف سوى الهجوم.

قالت «زبيدة»: إن طلقة صائبة تنهي الموقف.

قال «أحمد»: إننا لا نريد أن نكشف مكاننا.

زبيدة: وإذا حدث هجوم؟

لم يرد «أحمد» مباشرة، غير أنه قال بعد لحظة: إننا سوف نمُر أمام عينيه تمامًا، ويمكن ببساطة أن يبدأ هو الهجوم.

ابتسم «خالد» وقال: يبدو أننا نسينا.

أخرج من جيبه إبرة مخدرة، ثم ثبتها في طرف مسدسه وأحكم النيشان في بطن النمر الراقد، ثم أطلق المسدس. مرت لحظة، لعق فيها النمر بطنه، ثم تمدد على الأرض، بلا حراك، وضغط «أحمد» على يد «خالد»، ثم تقدموا بسرعة، غير أنهم فجأة انبطحوا على الأرض، فقد رنت طلقة بجوار قدم «زبيدة».

همس «أحمد» بعد لحظة: إنهم لن يتركونا، ولا بُدَّ أن نشتبك معهم.

مد يده وأخذ حجرًا متوسطًا ثم قذفه بقوة، في اتِّجاه أغصان شجرة. أحدث الحجر أصواتًا، جعلت طلقات الرصاص تنهمر، وعرف «أحمد» مكان من يطلقون الرصاص، فقال: علينا أن نتصرف بسرعة.

زحفوا في نفس الاتِّجاه، غير أن «خالد» قال: ينبغي أن نتوزع، إن ذلك سوف يفزعهم أكثر، في نفس الوقت يعطينا فرصة للتصرف.

وافق الاثنان على فكرة «خالد»، فبقيت «زبيدة» في مكانها، حيث احتمت بشجرة بلوط ضخمة، اتَّجه «أحمد» إلى اليمين بينما اتَّجه «خالد» إلى اليسار وما كادا يبتعدان، حتى رنت طلقات متتالية في اتَّجاه «زبيدة»، التي ردت عليها بطلقات أخرى، ثم ... بدأ الصمت الحذر من جديد.

وضع «أحمد» أذنه على الأرض، يتسمع لأي حركة، غير أن أصواتًا مفاجئة، جعلته يتنبه. لقد كان صوت قردة تجرى فزعة، سدد عينيه في اتِّجاه الأصوات، ولم يصدق ما

رأي، لقد رأى «برازيني»! إذن، لقد أمسك بأول الخيط، فأخرج جهاز الإرسال، وأرسل رسالة إلى «خالد».

كان «برازيني» يظهر أمامه مباشرة، وهو يمسك مسدسه، فحدد «خالد» مكان «برازيني»، ثم فجأة ظهر رجلان آخران، وتذكر «أحمد» أنه رآهما في القطار. كان «برازيني» يتقدم في اتجاه «أحمد» فظل قابعًا في مكانه، دون حركة، وأخذ الرجال الثلاثة يتقدمون، فاقتربوا أكثر.

في نفس اللحظة ... وصلته رسالة من «خالد»، وحدد «خالد» مكانه، كان يقف خلف الرجال، وإن كان بعيدًا قليلًا.

فكر «أحمد» بسرعة؛ هل يشتبك معهم بالمسدس أو ينتظر حتى يشتبك بالأيدي؟

قطع عليه تفكيره رسالة من «زبيدة» كانت الرسالة تقول: تحركت إلى النقطة «د» يوجد سمك آخر.

فهم «أحمد» الرسالة، فأرسل إليها: راقبي الموقف عندك، وأرسلي رسالة إلى «عثمان» و«مصباح»، يبدو أن الموقف سينتهي هنا.

أرسل رسالة أخرى إلى «خالد»، يخبره برسالة «زبيدة» ... وكان «برازيني» لا يزال يتقدم هو ومن معه، وفكَّر «أحمد» أن المفاجأة هي العنصر الأساسي في المعركة.

انتقل في خفة إلى شجرة أخرى، ثم أخذ يتسلقها في هدوء، وعند أول فرع قابله، انكمش منتظرًا. اقتراب الرجال أكثر، فأرسل إلى «خالد»: كن مستعدًّا سأعطيك إشارة الهجوم.

أصبح «برازيني» ومن معه أسفل الشجرة تمامًا، فقال في نفسه: خطوة واحدة، ثم يبدأ الهجوم.

لم يتحرك أحد منهم، وسمع «برازيني» يقول: هل اختفوا؟

ردَّ واحد: لا بُدَّ أنهم في مكان ما.

مضت لحظة، ثم قال الآخر: «توم»، هل تعتقد أنهم رحلوا خلف السيارة؟

لم يرد «توم» مباشرة، كان هو الآخر ضخمًا لا يقل ضخامة عن «برازيني» ثم قال بعد فترة: لا أظن. إن كثافة الأشجار تجعل الموقف معقدًا.

ثم تقدَّم «برازيني» خطوة، ولم يتقدم الآخران، فلم يستطع «أحمد» الهجوم.

قال «توم»: من المؤكد أنهم قريبون من الطريق الرئيسي. يجب أن نتجه إلى هناك.

خطى خطوة واحدة، أرسل «أحمد» أثناءها رسالة إلى «خالد»، ثم في قفزة واحدة، كان يطير باسطًا يدَيه، وقدمَيه، ليضرب الرجال الثلاثة في وقت واحد.

اصطدم «توم» والآخر ببعضهما، في نفس الوقت الذي اصطدم فيه «برازيني» بشجرة، وقبل أن يفيق الثلاثة من المفاجأة، كان «خالد» قد انضم إلى «أحمد» فضرب «توم» بقوة، فتهاوى على الأرض.

في نفس الوقت، كان «أحمد»، قد ضرب «برازيني» ضربة قوية، جعلته ينحني وهو يئن، فعاجله بأخرى وترنح «برازيني»، ثم دار حول شجرة، واختفى، غير أن مسدسه ظهر من خلفها، وكان «خالد» أسرع منه، فطار في الهواء، وضرب المسدس بقدمه، فطار وسقط بعيدًا عنه، وقبل أن يفكر في الحركة، كان «أحمد» قد ضربه ضربة مفاجئة، جعلته لا يرى شيئًا، غير أن الرجل الثالث، كان قد اختفى.

قال «أحمد»: سوف يصل آخرون الآن. علينا أن ننظم أنفسنا.

رد «خالد»: بعد أن نعرف الموقف عند «زبيدة».

أرسل «أحمد» رسالة سريعة إلى «زبيدة» فردت بسرعة: إن معسكرهم أمامي تمامًا وحددت المكان عند النقطة «د».

قال «أحمد»: إذن يجب أن نفاجئهم قبل أن يفاجئونا.

قال «خالد»: يجب أن نخدِّر هذين الرجلين بتخدير قوي، حتى لا يفيقا لمدة طويلة.

أسرع فأخرج إبرتين مخدرتين، وأطلق واحدة على «برازيني»، والأخرى على «توم»، وفي لمح البصر كانا يتجهان إلى النقطة «د».

كانت «زبيدة» ترقب حركة المعسكر، وعندما شاهدت أحد الرجال يصل جريًا، فهمت كل شيءٍ وعرفت أن المعركة قد بدأت، وحدثت حركة نشطة داخل المعسكر. في نفس اللحظة، التي وصل فيها «أحمد» و«خالد» فأشارت إلى المعسكر.

وقال «خالد»: علينا أن نهاجم، عندما يغادرونه، إننا نستطيع أن نصطادهم، واحدًا واحدًا.

خرج خمسة رجال بسرعة، وتعرف «خالد» على الرجل، وقال: ها هو الهارب.

ابتسم «أحمد» وقال: إلى أين سيهرب؟ إنه حتمًا سيقع في أيدينا. وصمت لحظة، ثم قال: إن المهم هو أن نحصل على خرائط القنابل.

سأل «خالد»: أي خرائط تعني؟

قال: التي يزرعون القنابل على أساسها. وشرح «أحمد»: إن القنابل — كما قرأت في البحث — تزرع فوق نقط محددة ... ثم تنفجر حسب سرعة الرياح، وإذا نحن وجدنا الخرائط، فسوف نحدد بالضبط تلك الأماكن، والمؤكد أن الخرائط في مكان ما ... داخل هذه الخيام.

كان الرجال الخمسة قد اختفوا، وظهر ثلاثة، يدورون حول المعسكر، فهمس «خالد»: إنها فرصتنا.

اقترب الشياطين بسرعة ودون صوت، قال «خالد»: الإبر المخدرة.

زحف وحده حتى اقترب تمامًا، ثم انتظر حتى جاء أحد الحراس في اتجاهه، فأخرج مسدسه، ثم أطلق إبرة مخدرة ... توقف الحارس قليلًا، ثم استند إلى ساق شجرة، وبدأ ينزل في هدوء، حتى استلقى على الأرض.

ارتفع صوت: «سليب»! «سليب»! أين أنت؟

ظهر الحارس الآخر، وتوقف لحظة، ثم جرى في اتجاه الحارس الأول، وعندما اقترب منه، صوَّب «خالد» إبرة أخرى، فتكوَّم بجوار زميله ... في نفس اللحظة، كان «أحمد» قد اقترب من الحارس الثالث، الذي كانت عيناه تدوران في كل اتجاه. وأخرج «أحمد» إبرة مخدرة، ثم صوَّب مسدسه ... لكن الحارس كان قد تحرك، ثم اختفى خلف شجرة. وتقدم «أحمد» في هدوء، لم يظهر الحارس، وأصبح «أحمد» خلف الشجرة تمامًا، انتظر اللحظة المناسبة لينقض عليه، إلا أن الحارس له يتحرك ... برز «أحمد» قليلًا حتى يستطيع الانقضاض فوقه، لكن رسالة سريعة جاءته: احذر.

ولم يكد يلتفت خلفه، حتى كان حارس رابع ينقض عليه، من أعلى الشجرة، فألقى «أحمد» نفسه على الأرض وقبل أن ينهض واقفًا كان الحارس قد ضربه، إلا أن «أحمد»، استطاع أن يتلقى الضربة بيديه، وقبل أن يعاجله الحارس برصاصة من مسدسه، كانت «زبيدة» قد طارت في الهواء، وضربت الحارس في يده، فطاشت الطلقة في الهواء، وتردد صداها في أنحاء المكان. قفز «أحمد» بسرعة وضرب الحارس.

ثم نظر «أحمد» حوله يبحث عن «خالد» فلم يجده، فأشار إلى «زبيدة»، ثم أسرع يدخل إحدى الخيام في نفس الوقت الذي دخلت فيه «زبيدة» خيمة أخرى.

بدا أن المعسكر خالٍ تمامًا، فأخذ «أحمد» يقلب في محتويات الخيمة، بحثًا عن الخرائط، غير أنه لم يجد شيئًا اقترب من الباب وأزاح الستارة الخفيفة في حذر، ثم تطلع إلى الساحة التي تتوسط الخيام، فلم يرَ أحدًا.

أسرع جريًا إلى خيمة أخرى مجاورة، فدخلها ومن جديد بدأ يقلب في الأشياء، فجأة تناهى إلى سمعه مجموعة من الأصوات أخذ يستمع إليها.

ارتفع صوت ينادي: «سليب»! «مثيران»! «جاك»! ثم توقف الصوت.

جاءته رسالة من «زبيدة»: إنني في الخيمة المجاورة. ولم يكَد يتلقى الرسالة، حتى جاءته رسالة أخرى: إننا في الطريق. الشياطين.

عرف أن الرسالة من «عثمان» و«مصباح»، فاقترب من الباب، ثم أزاحه في هدوء، غير أنه لم يرَ أحدًا. وجاءته رسالة من «خالد»، فعرف مكانهم؛ إنهم خلف خيمته.

وبالقرب من «زبيدة» سمع أحدهم يقول: يجب إفاقة «برازيني»، فهو الوحيد الذي يقرأ الخرائط ... والعمل بدأ عند الغروب.

عرف «أحمد» أن «برازيني» يعني كل شيء هنا ... بالنسبة لهم، وأن القضاء على «برازيني»، يعني القضاء على خطتهم كلها.

أرسل رسالة إلى «خالد»: هل وجدت الخرائط؟

جاءه الرد: لا.

قال في نفسه: لا بُدَّ أننا أخطأنا الطريق إلى الخيمة المقصودة. وفكر قليلًا، ثم قال: قد تكون الخرائط معه، وليست في أي خيمة.

وجاءه صوت أحد الرجال: ننقله إلى خيمة القيادة. «مثيران»، أحضر حقنة منبهة من خيمة الإسعاف.

وبدأت أصواتهم تبتعد. أزاح «أحمد» باب الخيمة، غير أن رسالة سريعة جاءته: إنهم يقتربون من مكاني إنني في خيمة القيادة.

خرج «أحمد» في هدوء، ونظر في اتجاههم، وفكر بسرعة: يجب أن يبتعدوا.

أخرج مسدسه، ثم أطلق طلقة دوت في الفضاء. ترك الرجال حملهم، ثم انبطحوا على الأرض، وفي لمح البصر كانوا قد اختفوا، كان «برازيني» يرقد على الأرض وبجواره «توم» نائمًا هو الآخر، وفرض الصمت نفسه على المكان ولم تكن هناك حركة ما.

فكَّر «أحمد»؛ إننا في حاجة إلى «تونجا» وعربته الآن، فأرسل رسالة سريعة إلى «عثمان»: عند النقطة «و» توجد عربة، سائقها «تونجا»، اقتربوا بها من النقطة «ل» ...

لحظة ثم جاءه الرد: إننا في العربة الآن، وسوف ننفذ الرسالة.

وفجأة بدا أن كل شيء سوف يضيع ... فلقد ظهر ما لم يكن يتوقعه أحد.

الخطة «أسد» ... هي النهاية!

ظهر دب ضخم، وأخذ يقترب في هدوء من «برازيني»، كان يتشمم المكان، حتى إذا اقترب منه، ظل يدور حوله وقال «أحمد» في نفسه: إنها مشكلة! قد يجر «برازيني»، ويختفي.

ظل قابعًا في مكانه، وكما فكر تمامًا، أمسك الدب بذراع «برازيني»، وأخذ يجره إلى خارج ساحة المعسكر.

فجأة، دوت طلقة، ثم سقط الدب بجوار «برازيني».

وفكر «أحمد» هل يكون الليل أنسب من النهار؟

ثم جاءته رسالة فبدأ يتلقاها، كانت من «عثمان»: نحن في النقطة «د». فأرسل رسالة سريعة، وهو يقول لنفسه: إن هذا هو الحل الصحيح. وكانت الرسالة: تحرك أنت و«مصباح» إلى النقطة «ي». المسافة عشرون مترًا.

ثم تحرك إلى ظهر الخيمة ورفعها، وانزلق إلى الخارج زحفًا، وكانت الخيمة التي بها «زبيدة» أمامه مباشرة. ظل يزحف حتى وصل إليها، ثم همس: إنني في الخارج.

ردت «زبيدة» التي عرفت صوته: هل أخرج؟

رد: نعم.

زحفت «زبيدة» أسفل الخيمة، ثم ظهر رأسها، وانضمت إليه، ثم أخذا يزحفان معًا حتى خيمة «خالد» التي لم تكن تبعد كثيرًا، كانا حريصين على الزحف في ظل الخيمة حتى لا يظهرا، وعندما اقتربا من خيمة «خالد»، همست «زبيدة»: نحن بالخارج.

أطل رأس «خالد»، ثم انضم إليهما، وزحف الثلاثة إلى خارج حدود الخيام، بينما كان «أحمد» يراقب الساحة بالتبادل مع «خالد»؛ كان يراقب هو أوَّلًا، ثم يزحف «خالد» حتَّى يصل إلى نقطة فيتوقف، ليراقب هو، بينما يزحف «خالد»، حتى يصل إلى نقطة فيتوقف، ليراقب هو، بينما يزحف «أحمد» وهكذا.

أصبح الشياطين عند شجرة بلوط ضخمة فاختفوا خلفها، في نفس اللحظة التي جاءت فيها رسالة من «عثمان»: نحن عند النقطة «ي». لا توجد حركة.

لم يكن يظهر شيء حتى الآن، ولم يكن أي من الجانبين يستطيع أن يستخدم ضوءًا واضحًا، غير أن الشياطين كانوا يملكون وسائلهم، فجأة ... صدرت صيحة عالية لفتت نظرهم، كانت الصيحة صادرة من وسط ساحة المعسكر، وسُمعت أصوات «برازيني»: لا تخف!

قال «أحمد»: لقد أفاق «برازيني»، ومن المؤكد أن الآخرين قد أفاقوا أيضًا.

قال «خالد»: فرصتنا أن نباغتهم الآن.

أرسل «أحمد» رسالة إلى «عثمان»: سوف نتحرك في اتجاهكم.

شرح «أحمد» فكرته: سوف نضع قنبلة صوتية هنا، ونعطيها نصف ساعة، سوف تكون كافية لأن نصل إلى الجانب الآخر، وعندما تنفجر سوف يعرفون المصدر، ولا يظنون أننا خلفهم، وعند الفرقعة سوف ننقض عليهم، لتكون هذه فرصتنا.

وافق «خالد» و«زبيدة» فأخرج قنبلة، ووضعها على الأرض، وبعد أن ضبط مؤشر الوقت، أخذ الثلاثة يزحفون في هدوء، دائرين حول المعسكر، وكانت دقات جهاز الاستقبال تحدد لهم مكان «عثمان» و«مصباح» ... ولم يكن زحفهم متواصلًا، فقد رسموا خطة التحرك على مراحل، فجأة، رأوا ضوءًا يتحرك، وعرفوا أن أحدهم يأخذ طريقه إلى وسط المعسكر، فأرسل رسالة سريعة إلى «عثمان»: لا تطلقوا النيران.

استمر زحفهم الحذر حتى سمعوا صوتًا هامسًا يقول: نحن هنا.

اقتربوا من الصوت، حيث كان «عثمان» و«مصباح»، وشرح لهم «أحمد» الأحداث منذ افترقوا في الخرطوم، وحتى هذه اللحظة.

نظر «أحمد» في ساعة يده، ثم قال: لقد أوشك الانفجار.

ولم يكد يتم جملته، حتى دوي انفجار هائل، أعقبه ضوء قوي، أضاء ساحة المعسكر، ثم انهالت الطلقات في اتجاه الانفجار، وحدد الشياطين مكان العصابة.

قال «مصباح»: هل تنتظر حتى الصباح؟

أسرع «عثمان» يقول: إننا يجب أن نستغل الليل. إنه فرصة طيبة لعدم الحركة، فلا أحد يستطيع منهم الآن أن يبتعد في الظلام.

أطبق الظلام من جديد، وعاد الصمت، فقال «عثمان»: نحن نستطيع أن نصطادهم بهدوء، لو أننا نفَّذنا الخطة «أسد».

صمت الشياطين قليلًا، فقال «أحمد»: إنها فكرة طيبة، على «زبيدة» أن تنتظر هنا، وسوف أتحرك مع «مصباح» دائريًّا في اتجاه اليمين، بينما يتحرك «عثمان» و«خالد» في الاتجاه المضاد، ثم نلتقي في النقطة «م»، وسوف نرسل إشارة إلى «زبيدة» بساعة التحرك.

من هناك، أخرج «عثمان» من حقيبته الصغيرة سلكًا رفيعًا جدًّا، أخذ «أحمد» طرفًا، وأخذ هو الطرف الآخر، ثم بدأ تحرك المجموعتين، بينما ظلت «زبيدة» وحدها، وبيدها الصندوق الصغير، الذي يتصل به طرفا السلك، كان الشياطين يطوقون المعسكر كله، بدائرة من السلك المشع، الذي يستمد إشعاعه من الصندوق الصغير، فعندما تضغط «زبيدة» على زر صغير فيه يصبح المعسكر، وكأنه قد أحيط بالنيران.

ظل تقدم الشياطين الهادئ كل مجموعة في اتجاه، ومضت نصف ساعة، حتى وصلت مجموعة «أحمد» إلى النقطة المحددة.

قال «مصباح»: لقد تأخر «عثمان».

لم يرد «أحمد»، غير أن رسالة جاءته: مزرعة ثعابين تعترض الطريق.

نقل «أحمد» الرسالة، ثم قال: انتظر أنت.

أخذ يزحف في اتجاه «عثمان»، فسمع همسًا يقول: يجب أن نصنع شيئًا.

رد آخر: المشكلة أن الخرائط مدفونة هناك، داخل الصندوق.

عرف «أحمد»، أن الذي يتحدث هو «برازيني» وأنه قريب منهم جدًّا.

أرسل رسالة إلى «عثمان»: يجب التقدم بسرعة.

جاءه الرد: لقد تخطينا العقبة.

ظل «أحمد» في مكانه، وقال واحد: هل نزحف معًا إلى هناك؟

رد «برازيني»: أخشى أن يكون أحد الآن يرصد حركتنا، إن الذي ينكشف، سوف يكون صيدًا سهلًا للآخر.

صمتوا بعدها، وفكر «أحمد»: ترى أين هذا المكان الذي ترقد فيه الخرائط؟

وضع أذنه فوق الأرض تمامًا، لعله يسمع حديثًا آخر ... ومر وقت، ثم جاءته رسالة: نحن بجوارك.

اقترب «عثمان» و«خالد»، فنقل إليهما «أحمد» ما سمعه، ثم قال: أكملا الدائرة.

استمرا في زحفهما، بينما بقي هو يتسمع، فقال واحد: «برازيني»، هل تشرح لي المكان؟ لم يأتِه رد. واستمر الصمت مدة، ثم جاء صوت «برازيني» الخشن: لن تعرف، يجب أن أكون أنا بنفسي هناك.

قال «أحمد» في نفسه: إن «برازيني» هو المطلوب ولا أحد غيره.

جاءته رسالة: لقد اكتملت الدائرة. فرد: إنني في الطريق. وزحف إلى المجموعة، حتى لقيها.

قال: علينا أن نعود إلى «زبيدة»، إن المكان الوحيد الخالي من الإشعاع عندها، ولا بُدَّ أنهم سيذهبون إلى هناك.

زحفوا جميعًا في اتجاه «زبيدة»، وأرسل إليها «أحمد» رسالة: نحن في الطريق.

فجأة، ارتفعت أصوات الحيوانات، زئير أسد، تجاوب في الغابة مع أصوات أسود أخرى، عواء ذئاب ... كانت الأصوات تقترب.

قال «مصباح»: سوف تسبب لنا مشكلة، لو أنها اصطدمت بالأسلاك، يجب أن تبدأ «زبيدة» في العمل.

عثمان: هذا صحيح، وعلينا أن نتراجع قليلًا، حتى لا نظهر.

أخذوا يتراجعون إلى مسافة كافية، ثم أرسل «أحمد» رسالة: زئير.

وصلت الرسالة، فضغطت «زبيدة» الزر، فجأة أصبحت هناك حلقة حمراء تحيط بالمعسكر، وسمعوا صوتًا مرتفعًا يقول: هل ترون؟ إن النيران حول المعسكر لا بُدَّ أننا نتعامل مع الشياطين.

ولم يكن صوت أفراد العصابة هو الوحيد، فقد ارتفعت في الغابة أصوات أخرى، كانت أصوات الحيوانات التي فزعت من ظهور الضوء الأحمر بهذا الشكل. وأسرع الشياطين جريًا إلى حيث «زبيدة»؛ لم يكونوا يخشون ظهور أصواتهم الآن، فقد اختلطت أصوات كثيرة ببعضها، وعندما وصلوا إلى «زبيدة» كانوا في أقرب مكان إلى أفراد العصابة وبدءُوا يسمعون الحوار الدائر بينهم.

جاءهم صوت «برازيني» يقول: إن هذا هو الجحيم.

جاءهم صوت آخر، كان يبدو مرتجفًا: ماذا نفعل الآن؟

قال «مصباح» مبتسمًا: لقد وقعوا في المصيدة.

سألت «زبيدة»: هل نتركهم حتى الصباح؟

أحمد: لا؛ إننا نعدهم فقط للقبض عليهم، إنهم لن يحتملوا هذا طويلًا، وها هم الآن، أمامنا، إننا نستطيع أن نصطادهم بسهولة. شاهد الشياطين أفراد العصابة، وهم يدورون حول أنفسهم، وجاءهم صوت «برازيني» الخشن: فلنبحث عن مكان للخروج.

أشار أحدهم: هناك فتحة، لا تبدو فيها نار.

قال «مصباح»: سوف يقعون الواحد وراء الآخر.

رفع «برازيني» مسدسه، ثم أطلق عدة أعيرة نارية في الفضاء تردد صداها في الغابة، قال «خالد»: إنها خطة ساذجة! فمن سيرد عليه؟!

صرخ أحدهم: فلنسلم أنفسنا. ثم جرى في اتِّجاه الشياطين، إلا أن «برازيني» أطلق عليه النار، فأصابه في قدمه وسقط الرجل على الأرض، يصرخ من الألم، ومن الخوف أيضًا.

صرخ «برازيني»: إن كنتم من الشياطين، فاظهروا لنا، إن «برازيني» الشجاع لا يخشى شيئًا.

قال «أحمد»: يمكن أن يسلم بعد قليل، إن هذا دليل على انهيار مقاومته.

أخذ الصندوق من «زبيدة»، ثم ضغط زرًّا آخر، فانسحب الضوء المشع.

صرخ «برازيني»: إنها فرصتنا.

سمع الشياطين أصوات أقدام تجرى، فأسرع «أحمد» يضغط الزر الأول، فأضاءت الدائرة وكان أفراد العصابة قد وصلوا إلى منتصف الساحة، فتوقفوا فجأة ...

قال واحد: إننا نتجه إلى الناحية المضادة، إنني أرى مكانًا بلا نار.

صرخ «برازيني»: إيَّاك أن تتحرك، إن هذه فتحة المصيدة. ثم صاح مرة أخرى: اخرجوا إن كانت بكم شجاعة، إن الشجاع لا يختفي أبدًا.

ابتسم «مصباح» وقال: بل إن الشجاع هو الذي يفكر بطريقة أحسن.

قال «أحمد»: يمكن أن نصطادهم الآن، ونترك «برازيني» للنهاية، فهو الذي يملك الخرائط.

كان أفراد العصابة يجلسون وسط الساحة و«برازيني» وحده الذي يقف، وهو يدور حول نفسه كالثور الهائج. أخرج الشياطين الإبر المخدرة، ثم بدءوا يثبتونها في فوهة مسدساتهم.

قال «أحمد»: لن نطلق دفعة واحدة، إن «برازيني» لا يزال يملك بعض المقاومة ونحن نريد أن نستنفدها ... قطرة قطرة.

ثم همس «أحمد» قائلًا: خالد.

في الحال رفع «خالد» مسدسه، ثم أطلق إبرة أصابت واحدًا، فسقط نائمًا ...

وقف «برازيني» ينظر إليه، ثم أسرع في اتجاهه، وركله بقدمه صائحًا: هل سقطت خوفًا.

همس «أحمد» مرة أخرى: مصباح.

رفع «مصباح» مسدسه، وأطلق إبرته، فسقط آخر، جرى «برازيني» إليه صائحًا: وأنت؟!

وهمس «أحمد»: «عثمان» و«زبيدة».

رفع كل منهما مسدسه، ثم أطلقا معًا إبرتان مخدرتان فسقط اثنان.

صرخ «برازيني»: بحق السماء، إن الغابة مليئة بالشياطين!

ابتسم «أحمد» وقال: الآن فقط عرفت أنك تتعامل مع الشياطين.

رفع «برازيني» يديه إلى أعلى مستسلمًا، وصرخ: ها أنا ذا.

مرت لحظة صمت، قبل أن يصرخ مرة أخرى: لقد استسلمت.

جاءه صوت «أحمد»: لا بأس يا سيد «برازيني».

صرخ «برازيني»: من أنت بحق السماء؟

أجاب «أحمد»: واحد من الشياطين.

«برازيني»: أي شياطين تلك؟

«أحمد»: ألقِ مسدسك، والباقون أيضًا …

رمى «برازيني» مسدسه بعنف، وفعل الباقون مثله.

فقال «أحمد»: تقدموا.

أخذوا يتقدمون حتى وصلوا عند الشياطين، الذين ظهروا وهم يشهرون مسدساتهم، واستسلم أفراد العصابة، وقال «أحمد»: أين الخرائط؟

رد «برازيني»: أي خرائط تعني؟

أحمد: لا داعي للإنكار، ومن الخير لك أن تقدمها لي.

ظل «برازيني» مترددًا قليلًا، ثم سار أمام «أحمد» حتى خيمة القيادة.

قال «أحمد»: لا بأس، هذا يكفي، فقط حدد المكان.

حدد «برازيني» المكان، فتقدم «عثمان» إليه، وأخذ يحفر قليلًا، حتى ظهر صندوق صغير، أخرجه وفتحه، فظهرت الخرائط.

لم تمضِ نصف ساعة، حتى كان أفراد العصابة مقيدين لتنقلهم عربة «تونجا»، وقال «صالح» بعد أن سمع القصة كلها: كم أنتم رائعون يا أولادي!

وبينما كان الليل يأخذ طريقه إلى الفجر، كانت عربة «تونجا» تقترب من مدينة «واد مدني» لتسليم العصابة لحكومة السودان. في نفس الوقت كان «أحمد» يرسل رسالة إلى رقم «صفر»: انتهت المهمة.

وجاءه الرد: شكرًا، إلى اللقاء.

هنــداوي